مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

مقاربة معرفية مقارنة بين نظرية النظم والنحو التوليدي
- الإشكاليات المعرفية والمنهجية -

الباحث: طارق عاشوري الدكتورة صباح حميدو لخضاري
المركز الجامعي صالحي أحمد - النعامة -

الملخص:

تفرض موجة اللسانيات المعاصرة على الباحثين العرب بذل جهد كبير في سبيل إثراء الدراسات العربية وتجديد مناهجها واستثمار المقولات اللسانية والفلسفية المعاصرة للنهضة بالدرس اللغوي العربي، وقد فهم هذا الأمر كثير من الدارسين منذ القرن الماضي، فعكفوا على قراءة التراث قراءة معاصرة لنتائج اللسانيات بمختلف نظرياتها، وهذا أورث إشكاليات منهجية ومعرفية عند هؤلاء خصوصا ما تعلق بالإسقاطات التي انتهجها كثير منهم بدعوى سبق التراث إلى بعض المفاهيم الواردة عند اللسانيين.

من تلك المقارنات نجد المقارنة بين نظرية النظم ونظرية النحو التوليدي، وسنحاول من خلال هذه المداخلة معالجة الإشكاليات المعرفية والمنهجية التي وجدت في الدراسات المقارنة بين النظريتين والموانع الحقيقية من القول إن ما في النحو التوليدي يوجد في نظرية النظم من خلال البحث في الأسس التي قامت عليها كلا النظريتين ثم الخلفيات المعرفية والفلسفية لكليهما ، والأخطاء المنهجية التي ارتكبها الدارسون المقارنون بين النظريتين.

الكلمات المفتاحية: النظم، النحو التوليدي، علم المعاني، اللفظ والمعنى، البنية العميقة، البنية السطحية، التحويل، معاني النحو.

Abstract :

The rapid movement in the field of modern linguistics imposes a great effort on researchers and Arab scholars to enrich Arab studies

المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

and their curriculum and to invest modern linguistic and philosophical arguments for the renaissance of the Arabic language studies. In fact, this has been understood by many scholars since the last century. Thus, they have been working on reading the heritage in modern way which is subject to the results of linguistics in various theories, and this raises the problems of methodology and knowledge for the scholars, especially with regard to the projections of many of them claiming the heritage proceeded to some concepts contained in the linguists. Among these comparisons we find the contrast between the theory of systems as a founding theory of some branches of the science of rhetoric and the theory of generative grammar.

We will try, through this intervention, to address the cognitive and methodological problems found in the comparative studies between the two theories and the real obstacles to say that what is in the generative grammar is found in the theory of system through looking at the foundations of both theories, then their cognitive and philosophical backgrounds, and the methodological errors committed by scholars while comparing between the two theories.

key words: system; generative grammar; Meanings; Pronunciation; Deep structure; Surface structure; Meanings of grammar.

مقدمة:

لقد ركزت الدراسات اللسانية الحديثة والمعاصرة –خاصة أنها دراسات ناقلة في عمومها- على رصد تلك الالتقاءات والتقاطعات التي حدثت بين الدرسين العربي القديم والغربي الحديث، بغض النظر عن المجال، فإننا إن أنعمنا النظر وجدنا بعض الدارسين يجمعون كل ما كتبه العرب قديما في كل المستويات "صوتي، صرفي، نحوي، بلاغي، ..." ليخضعوه إلى عمليات المقارنة والإسقاط في كثير من الأحيان على بعض ما جاءت به اللسانيات الحديثة والمعاصرة.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

غير أن هذه المقارنات كانت تتجه إلى حد الشطط والغلو أحيانا في تأكيدها أن كل ما جاءت به اللسانيات الحديثة إنما هي نسخة مترجمة مما هو موجود في التراث بمجالاته المختلفة.

وستكون هذه الورقات البحثية محاولة للولوج في هذه الإشكالية التي باتت تشكل على البحوث العلمية من ناحيتين: الأولى أنها مجرد أحكام سابقة لم يحاول أصحابها التمعن في قراءة الأصول لمعرفة حقيقة ما يدعون إليه، والثانية أنها صارت سنة من أراد البحث فيكتفي ببعض التعميمات والأحكام التي يجدها أمامه.

وهذه المحاولة ستؤسس من خلال النظر فيما قيل عن نظريتين شائعتين إحداهما من التراث البلاغي وتتمثل في نظرية النظم لصاحبها عبد القاهر الجرجاني، والثانية نظرية لسانية حديثة هي نظرية النحو التوليدي التحويلي لـ نعوم تشومسكي، من خلال البحث في الإشكالية "هل هناك حقيقة توافق ما بين النظريتين كما أشيع في الدراسات المعاصرة؟ وهل يعني هذا أن نظرية النحو التوليدي التحويلي هي نسخة أمريكية من نظرية النظم؟"

نظرية النظم ونظرية النحو التوليدي "الأصول والخلفيات":

لا يفوتنا أن نقرأ باختصار شديد أهم الأصول التي اعتمدت عليها النظريتان والخلفيات المعرفية والعقدية والفلسفية التي انطلقت منها كل نظرية لأن ذلك سيساعدنا على فهم الأسس التي بنتها كلا النظريتين، وبالتالي الإجابة على سؤال الإشكالية.

أ. نظرية النظم: الأصول الأشعرية والنحوية والأدبية:

لا يخفى على الدارسين في البلاغة والتراث العربي عموما أن الجرجاني كان متأثرا بمجموعة من الخلفيات جعلته يؤلف دلائل الإعجاز الذي يُعدُّ نواة نظرية النظم عنده، وأهم أصل كان متمسكا به –وهو ما سنراه في إهماله لقيمة اللفظ كما يشاع- هو الأصل العقدي المتمثل في المذهب الأشعري الذي يرى بأن القرآن الكريم هو كلام نفسي.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

فاهتمام الجرجاني بترتيب المعاني في النفس، كان له دافع بارز هو ما رأيناه في الصراع الذي قدحه المعتزلة في اهتمامهم باللفظ، وإعطائه المزية دون المعنى في البلاغة ثم الإعجاز، وهذا هو منهجهم الأمثل لتبيين عقيدتهم القائمة على خلق القرآن، ومن هاهنا كان رد الأشاعرة بأن كلام الله تعالى متعلق به سبحانه وليس بحادث وإنما هو كلام قديم، "فذهب أبو الحسن الأشعري إلى كونه (أي كلام الله) من صفات الذات ... وهو القول بالكلام النفسي القائم بذات المتكلم"[1].

تأثر الجرجاني أيضا بسيبويه وما جاء في كتابه من تلك التأسيسات التي كانت في وقت سيبويه تأسيسات عظيمة من أبرزها القول في التقديم والتأخير الذي أخذ في دلائل الإعجاز جزءا كبيرا؛ من ذلك قوله: "واعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل، غيرَ العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدّمون الذي بَيَانه أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم. ولم يذكر في ذلك مثالا"[2]. فإن الجرجاني عندما نقل قول سيبويه عن التقديم للعناية والاهتمام عني بالتفصيل فيه فكان من هذا القول أن كتب الجرجاني صفحات طويلة أبدع فيها انطلاقا من كلمتي العناية والاهتمام.

نجد الجاحظ من الكتّاب الذين تأثر بهم الجرجاني تأثرا شديدا وانطلق من مقولاته، خاصة تلك التي تؤسس للنظرة الأسلوبية والعناية بالتركيب قبل اللفظ والمعنى ، فالجرجاني يرى أن الفضل والغاية في الإعجاز لا تطلب بمجرد المعنى الذي يبين دلالة مفردة بعينها، بل إن الفضل يطلب من شيء آخر، يقول: "وليت شعري من أين لمن لم يتعب في هذا الشأن، ولم يمارسْه، ولم يوفّر عنايته عليه، أن ينظر

[1] جعفر السبحاني، بحوث في الملل والنحل –دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية-، ط1، مؤسسة الإمام الصادق، قمّ، 1427ه، ص: 317.

[2] دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص: 107.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

إلى قول الجاحظ1 وهو يذكر إعجاز القرآن: ولو أن رجلا قرأ على رجل من خُطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة، لتبيّن له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها، أنه عاجز عن مثلِها، ولو تُحُدِّيَ بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها"2، ثم ينقل أقوال أخرى عن الجاحظ ما يهمنا منها هو الصفات التي تدخل في إعجاز القرآن،وذلك مثل: الألفاظ المتخيّرة، المعاني المنتخبة، الطابع، النظم، وغيرها مما يشير إشارة واضحة إلى أنها تعني عنده ما عناه الجرجاني من فضل النظم، وأنه أساس تمييز الكلام بعضه عن بعض.

ب. نظرية النحو التوليدي: الأصول الفلسفية واللسانية:

تشومسكي هو الآخر كان متأثرا بمجموعة من الأفكار التي شكلت خلفية فلسفية ومعرفية له فإن أهم الأفكار التي استقى منها تشومسكي محاور ومصطلحات دراسته في إطار النحو التوليدي التحويلي هي أفكار فلسفية تعود إلى قرون قبله، ونعني هنا أفكار الفلاسفة العقلانيين3؛ "وجد تشومسكي في الفلسفة العقلانية ركيزة هامة لرفض جملة هامة من التصورات والمبادئ التي قامت عليها الدراسات اللسانية البنيوية في أمريكا، وبالفعل عاد تشومسكي في تصوره لطبيعة اللغة البشرية إلى آراء

[1] ينظر: رسائل الجاحظ: اختيار عبيد الله بن حسّان، تحقيق: محمد باسل عيون السود، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م، ج3، ص: 186.

[2] دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص: 251، وقال في صفحة أخرى:"أم تُرى الجاحظ حين قال في كتاب النبوة: "ولو أن رجلا قرأ على رجل..." لغا ولغط؟"، ينظر: دلائل الإعجاز: ص: 389.

[3] عندما تذكر الفلسفة العقلانية فإننا نذكر نظيرتها التجريبية لأنهما تياران يختلفان في أهم ركن وهو مصدر المعرفة، فالتجريبيون يرون أن الحواس هي مصدر المعرفة البشرية في حين يرى العقلانيون أن العقل هو الذي يلعب الدور في المعرفة بعيدا عن الحواس، ويؤكد العقلانيون إمكانية المعرفة القبلية تأكيدا مميزا، وهي تعرف في بعض الأحيان بأنها المعرفة التي تُمتَلك قبل التجربة، كما يرون أننا نستطيع بنور العقل أن نصل -بمعزل عن التجربة- إلى معرفة بعض الحقائق المهمة والأساسية عن الواقع، عن طبيعة الذهن البشري، وعن طبيعة الكون وما يشتمل عليه. ينظر: العقلانية فلسفة متجددة: جون كوتنغهام، ترجمة:محمود منقذ الهاشمي، حلب، مركز الإنماء الحضاري، 1997م، ط1، ص: 17.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

الفلاسفة والنحاة العقلانيين"[1] ولعل أبرز تلك المنطلقات: فرضية الفطرية Innateness Hipothesis، والنحو الكلي Universal Grammar، اللتين جاء بهما تشومسكي من آراء روني ديكارت R. Descartes، ودراسات مدرسة بور روايال ممثلة في رائدها أنطوان أرنولد Antoine Arnold ، وهما أهم فرضيتين لدى تشومسكي.

أيضا تأثر تشومسكي بالمدرسة التوزيعية التي كان رائدها بلومفيلد وهاريس، وكان تأثره بهاريس واضحا حين انطلق من معادلات هاريس في كتابه البنية النحوية[2].

مقارنة موجزة بين النظريتين:

سنذكر بعض النقاط التي ميزت كلا منهما لننطلق فيما بعد إلى إبراز التقارب أو التباعد بينهما، وذلك بإحصاء أهم المفاهيم التي اشترك فيها (أو لم يشترك) تشومسكي مع عبد القاهر، ثم نذهب إلى مناقشة بعض النصوص التي قربت بين النظريتين.

أولا: إحصاء نقاط محل اتفاق النظريتين وتحليلها.

نظرية النظم ركزت على النقاط التالية:

- توخي معاني النحو (أو معاني الإعراب) هو مبدأ هذه النظرية.
- المزية في التراكيب بمعانيها وتلاؤم معاني الكلمات فيها لا بترتب الألفاظ، والألفاظ كأصوات ليست لها مزية إلا بعد تمام النظم.
- الفروق في النظم من تقديم وتأخير وحذف وغيرها إنما تعتبر وفقا لمقصد المتكلم ومراعاة للسامع، حتى لا ننتقل من الغموض الفني (الجمالي) إلى التعقيد المعنوي (الإبهام).

[1] اللسانيات التوليدية: مصطفى غلفان، ص: 5.

[2] ينظر:البنى النحوية: نعوم تشومسكي، ترجمة يؤيل يوسف عزيز، الدار البيضاء، منشورات عيون، ط2، 1987م، ص: 37.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

- النظم عملية تبدأ بالتعليق (إيجاد العلاقات بين المعاني)وتنتهي بالبناء وتحديد الألفاظ المناسبة.

- المعاني الوضعية ليست كل اللغة فالمتكلم قادر على إيجاد علاقات مجازية بين الكلمات بعيدا عن المعنى الوضعي لها.

أما النحو التوليدي التحويلي فمن جوانبه ما يلي:

- اللغة الإنسانية فطرية وفطريتها تقضي بإبداعية الإنسان فيها من خلال قواعد التوليد التي تسمح بإنتاج كم هائل (غير منتهٍ) من الجمل استنادا إلى مجموعة محدودة من القواعد.

- النحو لا علاقة له بالدلالة إنهما شيئان مفترقان فقد توجد جملة صحيحة نحويا لكنها غير مقبولة دلاليا.

- الحكم على نحوية الجمل وعدمها يعتمد على حدس المتكلم.

- هدف التوليديين هو صياغة القواعد الكلية التي يمكن أن تجمع بين اللغات البشرية.

من هذه النقاط يمكننا أن نحدد النقاط التي يفترض أن تشكل محاور التقاء النظريتين، وهي:

- المنهج التفسيري والابتعاد عن الوصف.
- الثورة على الاعتناء بالمستوى الشكلي.
- التعليق عند الجرجاني ويقابله البنية العميقة عند تشومسكي[1].
- الوجوه والفروق ويقابلها التحويلات.

[1] اجتهدت في مقابلة التعليق بالبنية العمية استنادا إلى تعريفه الذي ملخصه هو أنه تلك العلاقات النحوية التي ينشئها المتكلم بين الكلمات كأول مرحلة من مراحل الكلام.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

1) اعتماد المنهج التفسيري والابتعاد عن الوصف:

معلوم أن علمي النحو والبيان كانا في بداية أمريهما علمين وصفيين، يقوم العلماء بوصف اللغة التي جمعوها وسمعوها إما من جهة التراكيب أو من جهة البلاغة والمجاز ، ثم يحاولون إيجاد الأسس العامة التي تجمع بين نصوص المدونة اللغوية، والمطلع إلى ما جاء في كتاب سيبويه وما جاء في كتب الجاحظ مثلا يجد الدليل على ما نقول.

وفي أثناء ذلك كانت بعض الجهود التي اتبعت منهجا تفسيريا كان الغرض منه الوصول إلى السر الذي به تفوقت لغة القرآن الكريم على سائر الكلام، وكان هذا عند أهل الكلام مثل المعتزلة والأشاعرة الذين كان بينهما ما رأينا من نزاع حول مزية اللفظ وعدمها، لكن هذه الجهود كانت قليلة في مقابل الجهود التي كان همها التنظير واستخراج القواعد في النحو والبلاغة.

جاء عبد القاهر الجرجاني وكان نحويا يستعمل لغة الوصف في أعماله التي كانت تقعيدية للنحو مثل المقتصد شرح الإيضاح، والجمل، والعوامل المائة وغيرها، إنها كتب واصفة للغة العربية وقواعدها، غير أنه عندما جاء ليحلل سر الإعجاز في دلائله سلك سبيل المتكلمين ليقرنه بالدراسة اللغوية، وكان منهجه تفسيريا، والقارئ لكتابه دلائل الإعجاز سيدرك ذلك من خلال عرضه أطروحة النظم بشيء من المناقشة والتوضيح والدلائل ليثبت اتجاهه وليفسر المزية في كون النظم ما ترتب أولا في النفس وليس ما كان في الحروف مسموعة، بل وقد سعى إلى التفسيرية ليوضح ما استغلق وما يمكن أن يستغلق على من قرأ كتابات من قبله وذلك حين يقول: "ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلَب، وموضع الدفين ليُبحث عنه فيُخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه،

المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

وتوضع لك القاعدة لتبني عليها، ووجدتُ المعوّل على أن ههنا نظما وترتيبا، وتأليفا وتركيبا وصياغة وتصويرا، ونسجا وتحبيرا، "[1].

ولأن موضوع النظم نحوي بلاغي، فإنه يبدو أن عبد القاهر قد سلك طريقا مختلفة، ومنهجا مباينا لمنهج النحاة والبلاغيين قبله، وهذا له مبرران

أولهما: أن نظريته في النظم تخص قضية من قضايا الكلاميين، ورأينا نزعته الأشعرية التي دفعته إلى الانطلاق من فكرة الكلام النفسي، لتأكيد أن البلاغة تكمن في المعاني قبل الألفاظ.

والثاني: هو أنه دخل مجالا ليس هو مجال النحاة والبلاغيين؛ فقد انتقل من مستوى الكلام الجاهز التام إلى مستوى المتكلم؛ أي عملية إنتاج هذا الكلام، وهذا مستوى تجريدي لا جدوى من مجرد الوصف في دراسته.

الأمر نفسه حصل مع تشومسكي الذي ثار على المنهج الوصفي الذي التصق بالبنيوية، بل بالدراسات اللسانية كلها.

ما رآه تشومسكي هو أن الوصف هو إحدى الكفايات التي تطمح كل نظرية نحوية أن تحققها، لكنه المستوى الثاني بعد كفاية الملاحظة، ويجب على النظرية النحوية أيا كانت أن تواصل وتتجاوز تحقيق الكفاية الوصفية إلى هدف تحقيق الكفاية التفسيرية، وهذا ما كان شبه منعدم عند البنيويين خصوصا الأمريكيين منهم، ذلك أن وصفهم في حد ذاته لم يكن وصفا شاملا لكل اللغة، بل كان وصفا للظاهر من اللغة (المستوى الشكلي)، ولا ننسَ أن تشومسكي كان مع التيار التوزيعي في بداية الأمر ثم بدا له أن دراسة اللغة لابد أن تكون أعمق من عملية إحصاء ثم معالجة الكلام بعد إنجازه.

[1] دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص: 34.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

الأمر عند تشومسكي يتعلق بمسائل أبعدها الدرس اللساني الحديث منها كيف ينتج هذا الكلام، وما هي الآليات التي يمر عبرها الكلام قبل الإنجاز، وقد يكون هذا هو الذي دفع به إلى التمييز في ثنائيته الشهيرة بين الكفاءة والأداء، الأمر يتعلق بشيء أكثر تجريدا.

سنقول إن الانتقال من الدراسة الوصفية الخالصة إلى المنهج التفسيري أول نقطة التقت فيه النظريتان باختلاف الهدف والمرجعية، وهو ما يكاد يتفق عليه الدارسون المقارنون.

2) الثورة على الاعتناء بالجانب الشكلي:

هذه النقطة تابعة تقريبا إلى ما سبق، بل إن الخروج من مستوى اللغة السطحي إلى المستوى التجريدي الذهني يفرض تجاوز الوصف إلى ما سواه من المناهج (على نحو ما قلناه عن الكفايات الثلاث)، وهذا أيضا سنجد الجرجاني يتفق فيه مع تشومسكي إلا أن هنالك تفصيلا.

رفض تشومسكي الاعتناء باللغة الخارجية (الكلام المنجز)، لأنها لا يمكن أن تمد الدارس بشيء مهم، ولا يمكن أن نتوصل بهذه اللغة إلى تفسير لعملية الذهن في إنتاج الكلام غير المحدود من مجموعة محدودة من القواعد.

ورَفْضُ تشومسكي هذا الاتجاه يرجع لسبب آخر أيضا هو محاولة الكشف عن تلك القواعد العامة الكلية التي تشترك فيها اللغات البشرية كلها، اعتمادا على مبدأ فطرية اللغة.

غير أن هذا يختلف معنا إذا ما نظرنا إلى ثورة عبد القاهر على الشكل، فإنه لم يثر على الدرس النحوي الذي كان سائدا في ذلك العصر كما يقول صاحب إحياء

المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

النحو[1]، بل لم يأت بجديد يقصد به تغيير هيكل الدراسات النحوية، إنما أتى بالجديد حين انطلق من تغير الكلمات إعرابا ليفسر به البراعة والمزية، وجاوز هذا إلى أنه حاول أن يحلل عمل العقل في ترتيب المعاني النحوية وبنائها وترتيبها وتمثيلها وهذا لا يعني أنه جدد النحو.

عبد القاهر ثار على شكلية أخرى ليست شكلية أواخر الكلم، وإنما شكلية الجماليات الأسلوبية التي دعا إليها المعتزلة ومن حدا حدوهم، من ذلك ربطهم جمال المعنى بجمال اللفظ، وزعمهم أسبقية اللفظ على المعنى، وذلك يرجعه نفسه إلى طلب الوضوح والتعميم، وهو مطلب مفسد للروح العلمية.

كان في كل مرة يعود إلى ثنائية اللفظ والمعنى لينفي شيئين هما: أن تُعتبر الكلمة مفردة ومعناها مفردا أساسا في المزية وجمال الكلام، وأن يكون الجرس الصوتي وحده مصدر ذلك الجمال؛ معنى ذلك أن الكلمة لا تفيد إفادة تامة حتى تلتقي بأخواتها في تركيب واحد لتلاؤم دلالاتها وتناسبها رجوعا إلى أصول النحو ومعانيه ونظرا لما يقتضيه الحال (السياق بكل أنواعه) من معانٍ تعبر عنه.

حذر الجرجاني أيضا من التعميم الذي ينجر عنه عدم الغوص في طلب الحقائق -كما ذكرنا- فلا يكفي أن نقول عن الكلمة إذا قُدِّمت في الجملة: التقديم للعناية، بل يجب أن نفصل القول وندقق في مسائل أخرى منها: ما دلالتها لو بقيت على وضعها

[1] يرى إبراهيم مصطفى أن الجرجاني تجاوز الاعتناء بأواخر الكلم إذ يقول: "وجاء بعد ذلك بآماد الشيخ عبد القاهر الجرجاني ورسم في كتابه دلائل الإعجاز طريقا جديدا للبحث النحوي، تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبيّن أن للكلام نظما وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام، وأنه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهما معناه، ولا دالّا على ما يراد منه", إحياء النحو، القاهرة، 1992، ط2، ص: 16. والجواب عن هذا القول بأن الجرجاني نفسه لم يستخف بالدرس النحوي الذي كان قبله، بل دافع عنه= = أشد الدفاع، ودافع حتى عن التمرينات التي يراها بعضهم مضيعة للوقت، وليرجع إلى مقدمات دلائل الإعجاز في الدفاع عن النحو.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

ورتبتها الأصلية؟ ما السياق الذي اضطرنا إلى تقديمها؟ وغير ذلك مما ينتج عنه تفسير دقيق للفروق والوجوه التي تحصل في الكلام، الأمر نفسه الذي حاول تشومسكي إقراره عبر محاولاته تجديد النماذج، إن كثرة النماذج التي أتى بها تشومسكي دليل على أنه كان يروم التفاصيل والتدقيقات مما جعل للنحو التوليدي مرونة لم تعهدها النظريات الأخرى.

3) التعليق/ البنية العميقة:

كثيرة تلك النصوص التي تربط بين ما جاء به الجرجاني في مراحل النظم وما جاء به تشومسكي فيما يسميه البنية العميقة، وتعتبر الفكرتين متطابقتين، وسنناقش بعض تلك النصوص في المبحث القادم، فهل يتطابق المفهومان حقا؟

البنية العميقة عند تشومسكي في النموذج المعيار هي البنية التي تتعلق بها دلالة التركيب، ثم انتزعت تلك الدلالة من المستوى العميق لتتعلق بالمستوى السطحي (بعد الانتقادات التي وجهها أصحاب الدلالة التوليدية للبنية العميقة)، والبنية العميقة هي المدخل الذي تباشر منه التحويلات عملها للوصول إلى بنية سطحية، إلا أن الذي يجب أن يذكر أساسا هو أن البنية العميقة عند تشومسكي هي الممثل التجريدي للنحو الكلي، والذي منه تأتي التحويلات لتعمل على تنويع التمثيلات.

المتحكم في البنية العميقة هي تلك القواعد السابقة لها في عملية التوليد، نقصد قواعد إعادة الكتابة، والقواعد المعجمية التي يُهدف منها إلى اقتران الكلمات بالبنى التركيبية المولدة لتركيب مدلول الجملة.

لا ننكر أن الجرجاني أيضا أشار إلى مفهوم قريب من البنية العميقة وهو "التعليق" الذي نعتبره أول خطوات النظم وأهمها، وهو الخطوة التي ينتج عنها تلك العلاقات المعنوية والنحوية بين أجزاء الكلام قبل تصويره في ألفاظه، وهنا نطرح مشكلين يمنعان من أن نعتبر مفهوم التعليق هو نفسه مفهوم البنية العميقة هما:

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

- التعليق مستوى يخص الأبواب النحوية المعروفة عند العرب، وليس مرتبطا بالنحو الكلي العالمي؛ معنى ذلك أن الجرجاني حرص في بداية دلائل الإعجاز أن يجمع الأصول النحوية (الأبواب) مختصرة ليتسنى له البناء عليها فيما بعد، وأحصى كيفية تعلق الكلم بعضها ببعض، وطرق التعلق هذه تكاد محصورة على العربية، وكمثال على ذلك نأتي إلى الجملة الفعلية فإن الأصل فيها ترتيب الفعل ثم الفاعل ثم المفعول به، وهذا الترتيب لا يصلح لأن يكون في اللغات الأوربية مثل الإنجليزية أو الفرنسية ذلك أن الجملة عندهم تبدأ بالاسم دائما، ثم إن الجملة العربية ترجع إلى أصلين إما جملة اسمية وإما جملة فعلية، بينما يصر تشومسكي على أن الجملة قبل دخول التحويلات هي تركيب يتكون من مركب اسمي ومركب فعلي، وواضح أن هذا يخص اللغة الإنجليزية وما يتصل بها من لغات أوربية ولا يشمل العربية مثلا.

مثال نجده عند الجرجاني حول التقديم، فهو ينقل عن سيبويه القول بأنواع التقديم وهي اثنتان: تقديم على نية التأخير وتقديم لا على نية التأخير، لا مشكل لنا في التقديم الثاني لأنه سيبقى على الأبواب النحوية الأصلية، فإذا قلنا [محمدا أرسل الله] فإنما قدمنا المفعول به وأخرنا الفعل فقط، لكن كلمة "محمدا" بقيت على حالها سواء تقدمت أو تأخرت. لكننا إذا غيرنا الحركة فيها إلى الرفع فقلنا: [محمّدٌ أرسله الله] خرج لفظ محمد من المفعولية إلى الابتداء، وهنا تكمن المشكلة، فأي بنية عميقة تجمع التقديمين، وكيف سنؤصل الجملة الثانية، هل أصلها جملة اسمية كما هو هنا؛ نقول: محمّدٌ رسول الله؟ أم نقول إن أصلها "أرسل الله محمّدًا"..؟، فأي الجملتين هي البنية العميقة لجملة [محمّدٌ أرسله الله]، بل نطرح سؤالا أكثر تعقيدا على افتراض أننا اخترنا أن الأصل كون الجملة فعلية، هو أي قاعدة تحويلية طُبِّقت هنا؟

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

- المشكل الثاني هو الفرق بين المتعلقات التي ترتبط بالبنية العميقة، فقد علمنا أن تشومسكي يربط البنية العميقة بالتركيب الأولي وفقا لقواعد إعادة الكتابة وبالدلالة التي لا تتجاوز أن تكون العلاقة بين العناصر داخل الجملة، وبمعانيها المعجمية، أي إن البنية العميقة تمثيل تجريدي للعلاقات البنيوية فقط، بينما نجد الجرجاني يربط التعليق والنظم عموما بما يتخطى اللغة ألا وهو السياق؛ فإنتاج الكلام ابتداء من المقام الذي يوضع فيه المتكلم وليس مجرد التركيب اللغوي معزولا عن الموقف والمقام، وهذا ما يجعل النظم نظرية تتجاوز النحو[1] لتحط في مجال البلاغة .

وعلى هذا يبدو لنا الفرق جليا بين البنية العميقة عند تشومسكي ليست نفسها التعليق، بل ليست هي النظم عند عبد القاهر وبينهما من الاختلاف المفاهيمي ما يجعلنا نعيد النظر في كلام بعض الدارسين ولكن لا ننفي التقارب.

4) الوجوه والفروق/ التحويلات:

كان الحديث عن الوجوه والفروق في تأسيس نظرية النظم ذا قيمة عالية، فبها كان يعول الجرجاني على تباين الكلام عن الكلام، وتمايز النظم عن الآخر، وسبق الشاعر دون صاحبه، وبلاغة الأديب دون غيره، إن تلك الوجوه هي التي تؤسس مفهوم النظم في خطوته الأخيرة بناءً على تناسبها مع ما يريد المتكلم إبلاغه انطلاقا من المقام الذي يكون فيه.

كذلك الأمر عند تشومسكي، فالتحويلات هي القواعد التي تسمح لنا بالانتقال من البنية التجريدية العميقة إلى البنية السطحية الملاحَظَة، لكنها ليست إلا بدائل أسلوبية يختار منها المتكلم بقدر رغبته.

[1] التجاوز هنا لا يُفهم على أنه إهمال للنحو، بل هو توظيف النحو في تحليلنا الكلام وعلاقته بسياقه .

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

الأمر الوحيد الذي يختلف فيه المفهومان بين الجرجاني وتشومسكي، هو أن الجرجاني يرى تلك الوجوه والفروق مؤدية لمعانٍ تختلف باختلافها فقولنا زيد منطلق أو منطلق زيد أو المنطلق زيد، أو زيد هو ينطلق ... ليست معنى واحدا بل هي معانٍ شتى صحيح أن اللفظ موحد بينهما لكن الوجوه بينهما متغيرة ففرض تغييرا في المعنى.

أما تشومسكي فإنه يرى التحويلات مجرد بدائل أسلوبية، ليست ذات دلالة خاصة في ذاتها، حتى عندما انتقده لاكوف وأصحابه ووضعوه بين خيارين إما أن يعتبر أن للقواعد التحويلية دلالات، وإما أن يتخلى عن تقسيمها بين تحويلات إجبارية واختيارية، اختار تشومسكي الثانية فأصبحت بذلك التحويلات إجبارية يتحكم فيها المتكلم، ونلاحظ أنه كاد يلامس الحقيقة التي أقرها الجرجاني لولا مبالغته في إقصاء أي شيء خارج بنية اللغة الداخلية والخارجية.

ما يمكن أن نخلص إليه بعض عرضنا وتحليلنا المصطلحات التي تبدو متفقة في مفاهيمها هو أن الالتقاءات والمطابقة ليست تامة، إذ إن النظر العميق والتدقيق وسبر أغوار المصطلحات ومفاهيمها يفرض علينا القول إن ما جاء به الجرجاني من تصورات تختلف عما جاء به تشومسكي، وحتى لو افترضنا جزافا أن نظرية النحو التوليدي التحويلي استمدت أهم دقائقها من نظرية النظم سنجيب بأن نظرية النظم هي نظرية في نحو يتجاوز الجملة إلى النص، بينما تبقى نظرية النحو التوليدي تدور في خلال الجملة.

أيضا تميزت نظرية النظم بأنها انطلقت من القواعد النحوية والمدونة اللغوية لتفسر العملية الإبداعية لدى المتكلم فيما انطلقت النظرية التوليدية من تلك القدرات الذهنية التي يملكها الفرد ، ومن النزعة الإبداعية[1] لديه ليتمكن من

[1] الإبداعية عند تشومسكي ليست بالمعنى الجمالي الذي قد يفهم، يطرح تشومسكي الإبداعية بقوله: "أنا لا أنسب إلى مفهوم الإبداع فكرة القيمة التي تتجلى عادة عندما نتحدث عنه، ولكن في

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

الوصول إلى القواعد النحوية التي تبرهن على كلية وشمولية النحو الإنساني عموما، فهذا غايته القواعد بينما انطلق الأول منها.

وبعد هذا العرض والتحليل الموجزين ننتقل إلى قراءة في بعض نصوص دارسين عرب محدثين كانت لهم رؤى فيما يخص العلاقة بين نظرية النظم والنحو التوليدي.

ثانيا: قراءة في كتاب الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني لمحمد عباس.

محمد عباس من الذين درسوا منهج الجرجاني في النظم من رؤية أسلوبية مجددة، حاول أن يستخلص تلك الجوانب الإبداعية التي تفرّد بها عبد القاهر وتميّز بها عن غيره.

يقول بعد عرض أهم ركائز النظم، وعلاقته بالنحو والبلاغة ومنهج الدراسة عند عبد القاهر : "ويكون عبد القاهر بهذا المنهج، وبهذا التعليل النحوي العلمي لفنّ القول قد سبق الكثير من الدارسين في هذا المجال، في الجانب المحدد، ولامس اتّجاه مدرسة النحو التحويلي والتوليدي التي يمثّلها تشومسكي والتي تعتمد على:

أ. اعتبار الجملة هي الوحدة اللغوية الأساسية، ويميز فيها بين البنية الظاهرية (السطحية) والبنية العميقة، وتنظم القواعد التحويلية العلاقة بين البنية العميقة والبنية الظاهرية للجملة.

ب. مراعاة التغيرات التي تقع في الجملة من تقديم وتأخير من موضع إلى موضع، وتميّز بين هذه التغيرات وما يترتب عنها من تغيّر جوهري في المعنى الذي تنجم

السياق الذي أتحدث فيه عن الإبداع يكون الإبداع فيه فعلا إنسانيا عاديا، أنا أتحدث عن الإبداع الذي يمكن لأي طفل أن يعبّر عنه عندما يكون قادرا على التعامل مع موقف جديد، أي أن يصفه بشكل منضبط، وأن يتصرف تجاهه بشكل منضبط،وأن يخبر عنه شخصا آخر وهكذا". ينظر: عن الطبيعة الإنسانية (مناظرة بين نعوم تشومسكي وميشال فوكو)، ص: 38.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

عنه تحولات قواعدية، ويذهب عبد القاهر هذا المذهب في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فيميّز بين ظاهرة التقديم على نية التأخير؛ لأنه لا يؤدي إلى تحولات قواعدية، وبين التقديم الذي هو ليس على نية التأخير؛ لأنه يؤدي إلى تحولات قواعدية وهو مذهب تشومسكي نفسه.

وقد تناول عبد القاهر الجملة الظاهرية والجملة العميقة من حيث هي بنية ذات قابلية في استظهار دلالات متباينة في المعنى، على نحو ما توسع فيه في باب الاستعارة"[1].

كون الجرجاني لامس بعض ما جاء به تشومسكي أمر مقبول جزئيا، غير أننا نقع الآن أمام إشكالية هل تكون نظرية النظم بكل دقائقها منطبقة تماما على النحو التوليدي التحويلي؟ الجواب طبعا لا، فقد تلتقي النظريات في بعض المسائل، ولكن الالتقاء يختلف باختلاف المرجعية، وباختلاف الهدف المرام منها، فلا يكون ما قصده الكاتب هنا إلا بعض القضايا التي صاغها تشومسكي صياغة أقرب إلى صياغة الجرجاني، وقد أرجعها عباس إلى مسألتين

- اعتماد الجملة وحدة أساسية للدراسة.
- الاهتمام بالتغيرات التي تطرأ على التراكيب

غير أن المسألة الثانية ليست كما قال عباس كلها، فإن التحويلات عند تشومسكي سواء في نموذج البنيات التركيبية أو في النماذج الأخرى لم يكن مقصودها تأدية معانٍ وتغيير دلالات التراكيب، في حين نرى ذلك عند الجرجاني، وحتى قضية التقديم الذي على نية التأخير والذي ليس على نية التأخير، هذا لا

[1] الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني: محمد عباس، دمشق، دار الفكر، 1999م، ط1، ص: 30.

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421
تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

ينفي بالضرورة الحتمية أن النوع الأول ليس له معنى خاص به؛ هذا ما نفاه الجرجاني نفسه؛ "واعلم أن من الخطأ أن يُقسّم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين فيجعل مفيدا في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض، وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطّرد لهذا قوافيه ولذلك سجعه، ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى"[1] ، فالتغيير أيا كان نوعه وسواء أخرج التركيب من باب إلى آخر ومن قاعدة إلى أخرى فإنه يحمل دلالة ولو بسيطة وليس هذا خاصا بالتقديم والتأخير، بل هو عام صالح لكل التغييرات والفروق التي تطرأ على التركيب.

غير أن قول عباس " ويذهب عبد القاهر هذا المذهب في كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فيميّز بين ظاهرة التقديم على نية التأخير؛ لأنه لا يؤدي إلى تحولات قواعدية، وبين التقديم الذي هو ليس على نية التأخير؛ لأنه يؤدي إلى تحولات قواعدية وهو مذهب تشومسكي نفسه".هو قول نكاد نعتبره غير دقيق، فتمييز عبد القاهر بين هذين التقديمين ليس هو مذهب تشومسكي بالتمام الذي يُفهم من هذا الكلام، فيجب هنا أن نراعي أيضا ما قاله الجرجاني وهو يعرض لهذين النوعين من التقديم، أي الدلالة التي ترافق بقاء نية التأخير ليست هي الدلالة نفسها التي تأتي بغير نية التأخير، فالانتقال بالجملة الفعلية وتحويلها إلى جملة اسمية تبدأ بمبتدأ هو المفعول به في الأولى أمر له دلالته الخاصة[2].

الخاتمة:

من غريب ما درست أن يتخذ حمزة المزيني موقفا ينفي به تأثر تشومسكي بالنحو العربي، كيف ينفي هذا التأثر وتشومسكي نفسه يقول إن هنالك احتمالات كبيرة لمثل هذا التأثير؟ قد نسمي هذا تواضعا من تشومسكي لكن دراسة اللغات السامية

[1] دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص: 110.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص: 132.

المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

ونضيف إليها دراسة كتاب سيبويه لا تبقي مجالا للاحتمالات بل ندخل بها مجال التأكيد، خصوصا إذا أيقنّا أن الغرب لا يعترف بتلك السهولة بإنجازات سبقته خاصة إن كانت من العرب المسلمين.

لكن هل يكفي اطلاع تشومسكي إلى موروث النحو العربي أن يكون حجة نرفعها لإثبات تأثره/ نقله من نظرية الجرجاني؟ هذا سؤال يجب أن يكون منطلقا لدراسة أخرى تاريخية خصوصا أنا نعلم علم اليقين أن دلائل الإعجاز ليس كتابا نحويا، وأن نظرية النظم كما سبق وقدمنا ليست من النظريات النحوية الخالصة، بل لم تكن مشتهرة في كتب النحاة منذ القرن الخامس للهجرة، بل يكثر ذكر الكتاب والنظم في كتب الأدب والبلاغة.

فهل كان تشومسكي متأثرا أخذ من النظم ما يكفيه ليبني نظريته التوليدية؟ أم إن ما بدا لبعض هؤلاء الدارسين تشابها واتفاقا كان توارد خواطر وآراء فقط؟

أسئلة لابد ألا نقف عندها، والواجب العلمي يفرض أن نسعى للإجابة عنها فيما يأتي ليس لنفضل نظرية على نظرية، ولا لنمجد شخصا على حساب الآخر، بل لأنها دراسة فيها ما فيها من اكتشاف للفوارق الإبستمولوجية بين النظريات اللغوية كلها.

المراجع:

1. الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني: محمد عباس، دمشق، دار الفكر، 1999م، ط1.
2. إحياء النحو: إبراهيم مصطفى، القاهرة، 1992، ط2
3. بحوث في الملل والنحل –دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية-: جعفر السبحاني، قمّ، مؤسسة الإمام الصادق، 1427ه، ط1.
4. البنى النحوية: نعوم تشومسكي، ترجمة يؤيل يوسف عزيز، الدار البيضاء، منشورات عيون، ط2، 1987م.

المجلد :7 / العدد :2 ISSN :2353-0464
E-ISSN :2600-6421

تاريخ الارسال : 2019/06/08، تاريخ القبول: 2019/06/17 ، تاريخ النشر: 2019/11/25

5. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، 1992م، ط3.

6. رسائل الجاحظ: اختيار عبيد الله بن حسّان، تحقيق: محمد باسل عيون السود، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م.

7. العقلانية فلسفة متجددة: جون كوتنغهام، ترجمة:محمود منقذ الهاشمي، حلب، مركز الإنماء الحضاري، 1997م، ط1.

8. عن الطبيعة الإنسانية (مناظرة بين نعوم تشومسكي وميشال فوكو).